مستوى أداء الطلاب في التعليم الجامعي
تعليم النحو أنموذجاً

أ.د. محمّد عطا موعد
جامعة دمشق/ كليّة الآداب / قسم اللّغة العربيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

في ختام كل فصل دراسي، ولدى صدور نتيجة امتحان مقرر النحو والصرف السنة الأولى في قسم اللغة العربيّة يتبيّن أن نسبة النجاح في هذا المقرر منخفضة، وهي غالباً دون عشرين بالمئة، وهذا يقود إلى سؤال حول مستوى أداء الطلاب في التعليم الجامعي في قسم اللغة العربيّة، في مقرر النحو والصّرف.

فهو مستوى متدن جدّاً، وهذا يعود لأسباب كثيرة، فمن هذه الأسباب:

١–الضعف الشديد في النحو، وهو ضعف يعود إلى المراحل السابقة للجامعة، ولا يمكن النزول بمستوى المقرر إلى مستوى الطالب الضعيف، وهذا الضعف في تلك المراحل يعود إلى طريقة تدريس النحو، فهي طريقة تقوم على التلقين والحفظ، والنحو هو هيكل اللغة، وهذا الهيكل لا يمكن أن يبنى على التلقين والحفظ؛ بل على الفهم والاستنباط والاستنتاج، فالنحو هو أشبه بالرياضيات، والرياضة لا تقوم إلاّ على الفهم الدقيق للقوانين، ثم تطبيقها على المسائل، ولا يمكن للطالب أن يحفظ مسائل الرياضة، فهذا أمر شاقّ عسير عويص؛ لذا يفهم الطالب القانون ويطبقه، مستعيناً بالقياس، وكذا يجب أن يكون النحو؛ ولكن الملاحظ أنّ الطلاب يحفظون إعراب النصوص حفظاً؛ لأن النصوص التي هي في منهجهم يأتي نصّ منها في الامتحان؛ لذا ترى الطالب يتحوّل إلى آلة تحفظ معلومات النص من حيث ما له صلة بشرحه وبإعرابه وببلاغته، دون أن يعي ما يقول؛ فإن آل إلى قسم

اللغة العربيّة في الجامعة ألفى طريقة جدّ مختلفة في تدريس النحو لم يألفها على مدار ثنتي عشرة سنة قضاها في التعليم.

وهو إلى هذا ليس لديه سماعٌ قويم في المرحلة الأولى من عمره ذلك « أن المرء يتكلّم وفق ما يسمع، فإن كان سماعه صحيحاً أثّر ذلك في لغته، فسمت وارتقت، وإن كان سماعه فاسداً فسدت لغته.

وإنّ نظرةً فيما يسمعه أبناء العرب اليوم لتقطع بأن ما يسمعونه في الأعمّ الأغلب لا يمكن أن يقيم لغة صحيحة سليمة لديهم، فجلّ سماعهم يقوم على العاميّة، والعاميّة لا تصلح أن تكون لغة المعرفة والفكر والعلم، وهذا يعني أن مزيدا من سماع العامية يعني المزيد من الضعف في المعرفة والفكر والعلم، ولا أريد هنا أن أتحدّث عن صلة اللغة بالفكر فقد بات هذا الأمر بديهياً، وبناء على هذا فإنه يجب أن نُولي سماع الفصيح جانباً كبيراً من حياة أبنائنا، وهذا السماع هو الذي تقوم عليه اللغة، ومعلوم أن البيئة المثلى لهذا السماع هي السنوات الأولى من حياة الطفل، فعلينا أن نعمّق سماع الفصحى في هذه المرحلة، وهذا يكون بخطوات فعلية تقوم بها الأسرة؛ لأن السنوات الأولى من حياة الطفل تكون مسؤولية الأم والأب بالدرجة الأولى، فعليهما ألاّ يدّخرا أيّ جهد في سبيل إسماع الفصحى لأبنائهم في تلك الحقبة المبكرة من حياتهم .

والمعضلة الرئيسية في رأيي تكمن في أن هذا السماع مستبعد من حياة الوالدين تماماً؛ وذلك لأنهما يجهلان مدى أثره في التلقي الصحيح للّغة في شخصية الطفل في قابل الأيام، فلو كان هناك الوعي الكافي لأهمية اللغة في حياة الطفل، وأثرها الكبير في بناء شخصيته السّويّة لألفينا أن الوالدين يبحثان ويسألان ويستقصيان عن السبل الصحيحة والقويمة في بناء السماع الصحيح لدى الطفل، تماماً مثلما يوليانه العناية والرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية والجسدية، بحيث تصبح العناية اللغويّة لا تقل شأناً عن ذلك؛ ولكن ضعف الوعي في هذا الجانب يجعل الحياة اللغويّة للطفل في آخر حسابات الأسرة، ولهذا علينا أن نمكّن هذا الجانب لدى الأب والأم، وتمكينه يكون بالتوعية والتبصير.

ولعل الإعلام يكون له الدور الأول في هذا المضمار، فالإعلام عندما يكون من همومه الأولى بناء اللغة الصحيحة عند الأجيال تراه كلّ يوم يخصص جانباً منه في وسائله الأكثر انتشاراً لتبصير الناس بمدى قيمة اللغة في حياتهم، ويعطي الفكرة تلو الأخرى في بناء سماع صحيح في الأسرة، وذلك عن طريق خطط مدروسة يشرف عليها كبار المربيّن والمفكرين والإعلاميين واللغويين.

وقد يقول قائل: وهل عند الأب والأم الوقت الكافي لذلك؟. إنّ هموم الحياة اليومية وتعقيدها الشديد لا يُدخل هذا في حسابات الأسرة، وقد يكون على رأسها تدبّر لقمة العيش التي تجعل البناء اللغوي آخر ما تفكر به الأسرة، فالأسرة ليس لديها الوقت لهذا الترف الفكري، إذ كيف يمكن لها أن تُقدم على هذا الترف الفكري وهي تفكر كل يوم ألف ألف مرة في بنطال أو كرّاس أو ربما رغيف خبز، أو غير ذلك من الحاجات الرئيسية التي يحتاجها الأبناء؟ ما هذا الكلام الذي تسوق؟ إنّ من يقترح مثل هذه الاقتراحات في مجال البناء اللغوي لهو امرؤ بعيد كل البعد عن واقعه، فأنت منفصل تمام الانفصال عن حياة الناس. أنت تفكر في هذا لأن تخصصك هو في مجال اللغة، وتريد من الناس أن يكونوا أهل لغة مثلك، وربما من يقرأ مثل هذا الكلام يعقّب بقوله: «كلام فارغ، كلام ببلاش.. إلخ»، وربما يصبح مثل هذا الكلام في بناء اللغة موضع تندر لدى الناس.

لا ريب أن الناس يعانون ما يعانون في حياتهم، وهذا لا ينكره عاقل، وطبيعي أن يقدّم الناس حاجاتهم الأساسية على مايسمّى التّرف الفكري؛ ولو علم الناس أن ما يسمّى الترف الفكري– في هذا الجانب– هو أساسي في حياتهم؛ لقدّموا التحصيل اللغوي ربما على طعامهم وشرابهم، غير أنهم يجهلون مدى أثر اللغة في الحياة؛ إذ إن اللغة لها كبير الأثر في حياتنا، ولمّا كان الأمر كذلك فإني سأتحدث عن هذا الدور في حياتنا؛ لعلّه يكون محفّزاً لمن يقرأ هذه الكليمات، فلعلّه يبدّل نظرته إلى اللغة.

إن للّغة دوراً كبيراً في حياتنا؛ ذلك أن اللغة تمدّ المرء بالثقافة والفكر والوعي، والتعلّق بها يمدّ المرء بالتحصيل المعرفي والثقافي عبر القراءة المستمرة طيلة الحياة، وهي تفتح له مجالات متراحبة في حياته، وشتان بين امرئ تجري القراءة والمعرفة

والثقافة في دمه، وبين امرئ حظّه نزر من القراءة والمعرفة والثقافة يسير، فالأول يحكّم ثقافته ومعرفته في مناحي حياته كلّها، فالقراءة والمعرفة تنير حياته دائماً، وتكون عوناً له على كلّ ما يعرض له فيها، فهي نور يبعده عن مهاوي الجهل، وهل ثمّة عدوّ أعتى من الجهل؟ ويكفي أنه يجري على ألسنة الناس اليوم: أنّ الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله عدوّ، ولو كان ثمّة ثقافة دائمة مستمرة تجري في الناس مجرى الدم لما جرى في عالمنا العربي ما جرى، وعلِمَ الصغير قبل الكبير أن ألد أعدائنا ممن روّجوا بين الناس شعارات وأفكاراً ظاهرها يدعو لانفتاح العيون نحو المجتمعات المتحضرة ومحاكاتها؛ كي ترقى في سلّم الحضارة، وباطنها يدعو إلى الثبور والهلاك والخراب والفوضى الخلاّقة»[1].

٢–طريقة تدريس النّحو في أقسام اللغة العربيّة:

ويجب علينا هنا أن نضع أيدينا على الجرح، وأن نقول الحقيقة، دون مداهنة أو مواربة، فالوقوف على الحقيقة مهما كانت هذه الحقيقة مرّة أهون بكثير من الاستسلام إلى الوهم المريح.

ذلك أنّ طريقة تدريس النحو في أقسام اللغة العربيّة هي طريقة لا تختلف كثيراً عن أختها في المراحل السابقة للجامعة، فهي طريقة في جلّها تقوم على التلقين والحفظ، وعلّة هذا أن تعليم النحو بطريقة الاستناج والاستنباط يعوزها نظام تعليمي مختلف عمّا نراه اليوم في جامعاتنا، ذلك أنّ هذا النظام التعليمي قائم على النظام الفصلي، والطالب في هذا الفصل الواحد لا يُعطى له أكثر من عشر محاضرات، أي بحدود عشرين محاضرة في العام، هذا إن أُخرجتِ العطلُ الرسمية من حسابنا، وأمام هذا الوقت القصير جداً يضطر المدرّس أن يعطي المقرر بطريقة المحاضرة والتلقين، كي يغطي مفردات المقرر المطلوبة.

ويزيد في الطين بلّة هذا الحشد الكبير من الطلاب في المدرج، تخيّل أنّ أمامك حوالي ثلاث مئة طالب يحضرون محاضرة للنحو، فهل هذا الحشد يسمح للمدرّس بأن يُعطي الدرس بطريقة الاستنتاج والاستنباط؟

---

[1] –انظر: الموروث اللغوي وأثره في بناء اللغة ٢٣–٢٧.

إنّ هذه الطريقة هي التي يجب أن يعطى النحو من خلالها، وهذه الطريقة يعوزها أقلّ عدد ممكن من الطلاب داخل قاعة مجهّزة بعارض ضوئي، ومنضدة دائرية؛ ليكون درس النحو على شكل حوار بين المدرّس والطلاب، ويقوم الدرس كلّه على استنباط القواعد من فصيح النصوص وجميلها، بعد فهمها الفهم القويم، ذلك أنّ فهم النصّ والعيش معه هو أساس فهم النحو، والذي نراه في واقع الطالب هو أمرٌ جدّ مختلف، فكثير من المشاهد النديّة « من عذب شعرنا الجميل حديثه قبل قديمه؛ تغدو في أيدي الطلبة لدى إعراب النصوص جامدة باهتة باردة، فالطالب الجيّد في الأعم الأغلب قد يَلمحُ معنى هذا البيت أو ذاك، وتكون غايتُه منصبّةً على إعراب النص دون تذوّقه، والوقوف على ما فيه من سحر اللغة والبيان»[٢].

ولذا تراه إن أعرب هذا اللفظ أو ذاك التركيب يردد أحياناً مصطلحات وكلاماً لا يعرف ما المراد منه.

فمن ذلك قول كثير من الطلبة في إعراب (لدى) في قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحشَف البَالِي

(ظرف متعلّق بالتشبيه المستفاد من «كأن»).

هو يقول هذا ويردده مرّة بعد أخرى، ولعلّه يقوله بشيء من الترنّم؛ كي يشعر السامع بأنه ذو مستوى جيّد في الإعراب، وهو لا يدري أنّ ما يجري على لسانه هو النظرة السطحيّة القريبة والتصور المحدود، فإن طلبتَ منه أن يشرح لك ما يردد ألفيتَه عيياً، لا يقوى على الكلام؛ بعد أن كان يترنّم بإعرابه.

وعلّة ذلك أن هذا الطالب قد أخذ الكلام على عواهنه، فحفظه من دون أن يعرف سبب استعمال الأداة (كأنّ) أصلاً، فإن تبيّنَ له أن العرب لو لم يكن في كلامها أدوات للتشبيه لاستعملت الأفعال التي تدلّ على التشبيه، فلو افترضنا أن العربيّة لم تعرف مثل هذه الأدوات سنرى أن امرأ القيس سيستعمل الفعل (أشبّه) بدلاً من الأداة (كأن)، وسيقول: أشبّه قلوب الطير لدى وكر العقاب –وهي أنثى النسر– بالعنّاب، وهو نبات أحمر طري، وبالحشف البالي، وهو التّمر اليابس، وعليه سيكون تعليق الظرف (لدى) بالفعل (أشبّه)، ولكنه لمّا كثر التشبيه في كلام العرب

---

[٢] –انظر: سحر اللغة والبيان ص٥ .

استعاضت العرب عن الفعل (أشبّه) وما ماثله بأدوات حملت معنى التشبيه، وهذا معنى قولنا: إنّ الأداة (كأنّ) هي أداة تحمل معنى، أو هي من أدوات المعاني، وعليه يمكن بيسر وسهولة أن نقول للطالب: إذن نعلّق الظرف (لدى) بالأداة (كأنّ) لأنها قامت مقام الفعل (أشبّه)، فهي إذن أداة يُستفاد منها التشبيه، وعليه علّق الظرف بالتشبيه المستفاد من الأداة.

وما كان لذلك أن يتمّ إلاّ بخطوة لا بدّ منها، وهي أن يُشارك الطالبُ في شرح البيت وتذوّقه، فلو أطاق المدرّسُ وضعَه في ذلك المشهد المهول، المشهد التصويري الحيّ، حيث أنثى العقاب وهي تطارد سرباً من الطيور، فيفرّ هارباً فزعاً منها، وكيف لا يهاب طائر صغير نسراً قويّاً يطلبُها، وبعد صراع ينشب بينهما يتمكّن النسر القوي من صيد طائر صغير مُنهك، فيحمله إلى وكره، وهناك يكون الصغيرُ الضعيفُ طعاماً لذيذاً لأنثى العقاب، وربّما لأبنائها أيضاً، تفترسه جَذِلةً، لتدعَ قلبه الصغير لدى الوكر، ويتوالى هذا المشهد كرّة بعد أخرى، ومع انصرام الأيام والليالي ترى بعض قلوب الطير لدى وكر أنثى النسر تشبه العناب، على حين أن بعضها يشبه التمر اليابس.

لا ريب أن رسم المشهد على ذلك النحو أمام الطلبة يجعلهم يعلّقون شبه الجملة بالتشبيه المفهوم من الأداة (كأن) على نحو يسير؛ لأنهم عاينوا المشهد، وتذوّقوا ما في الشريط من تصوير عُرض على مرأى منهم، وهكذا يكون لتذوّق الشعر وفهمه على هذا النحو درجة رفيعةٌ رفيعةٌ لا يخفى أثرها على ذي لبّ في إعراب النصوص.

وعلينا هنا –كي يكتمل رسم الصورة–أنْ نبيّن للطالب ظاهرة تطّرد في العربيّة، وهي أنّ كل ما يكثر على اللسان والأذن فإن العرب تتخفف منه، فالنداء مثلاً يكثر في كلام العرب، وهبْ أن لغتهم قد خلت من أدوات للنداء، فهذا يستدعي أن يستعمل العربيّ الفعل (أنادي) أو (أدعو) أو ما ماثل هذا؛ إن أراد أن ينادي (زيداً) من الناس، وهذا شيء في غاية التعسف والثقل على اللسان والأذن، فالأذن واللسان لا يستسيغان ذلك، لأن النداء يجري كثيراً على اللسان؛ ولذا تخففوا من الفعل (أنادي) أو ماشابهه، واستعملوا بدلاً عنه أداة للنداء، حتى إنه لمّا كثر استعمال

الأداة (يا) حذفت هي الأخرى في كثير من كلامهم، فالعربي يستعمل النداء دون أن يذكر الأداة، وغني عن القول أن قوله جلّ وعزّ (يوسف أعرض عن هذا) هو من هذا الباب.

وكذا كلّ ما جرى على اللسان ترى العربي يتخفف منه، فالاستفهام يكثر في كلامهم لذا استعاضوا عنه بأدوات للاستفهام، وقس على هذا أدوات أخرى.

ولكن التعجب لم يكثر في كلامهم، ولذا لم يجعلوا أدوات له؛ بل جعلوا فعلين أو صيغتين له (ما أفعله، وأفعل به).

وقل الشيء نفسه في تعليق شبه الجملة بكلّ أداة تحمل معنى من المعاني، ويتمّ بها الكلام، مثل أدوات النفي؛ لأنها تقوم مقام الفعل (نفى) أو ما ماثله، وأدوات التكثير، مثل (كم)، و(كأيّن أو كائن) الخبرية، أو (يا) التي تستعمل للاستغاثة، فهي تقوم مقام فعل تقديره (أستغيث)، وقس هذا على باقي الأدوات التي تحمل معنى من المعاني.

وأنّى لك أن توصل مثل هذا لثلاث مئة طالب يحتشدون أمامك؟

أذكر أني كنتُ معاراً إلى بلد عربي خليجي، وغني عن القول الكلام على مستوى الطلبة هناك، ومع هذا كان غير مرّة لدي بضع طلاب في مقرر الصرّف، ومعلوم أنّ التصريف عويص عسير، وفي كل مرّة كنتُ في أوّل الفصل أسأل نفسي كيف يمكن أن أعلّم الصرف لطلاب لا يحسنون الإملاء؟

ومع هذا كنتُ أعقد معهم العزم على تجاوز هذا المقرر بالحضور، وأقول لهم لا أريد منكم سوى الحضور، لا أريد بذل أيّ جهد خارج هذه القاعة، كونوا معي فقط، وكنتُ أعطيهم قاعدة التصريف بطريقة استنتاجية، تقوم على الفهم، ثم أغني هذه القاعدة بالتدريب، فكلّ طالب له تدريب أو أكثر على القاعدة الواحدة، ولا بدّ له أن يصل بنفسه إلى الحل الصحيح، وهو حلّ يقوم على التحليل الصرفي، وقد أطقتُ عبر ذلك أن أجعلهم يتجرعون التحليل الصرفي تجرّعاً في قاعة المحاضرة، وهذا ما جعلهم يطلبون المزيد من التدريبات في البيت على تلك القواعد.

ويزيد في الطّين بلّة بعض طلبة الدراسات العليا في قسم اللغة العربيّة الذين يدرّسون في دورات خاصة تقام في بعض المعاهد الخاصة، حيث يأخذ طالب

الدراسات العليا دور الأستاذ، فيقوم بتدريس المقرر على هواه ومزاجه، وليس على أيّ معيار علميّ، والمقرر لا يطيق تدريسه إلاّ أستاذ متخصص في النّحو والتّصريف، لديه الخبرة الكافية التي تمكّنه من الأخذ بيد الطالب ليفهم مقرر النّحو والصّرف فهماً صحيحاً، يقوم على الفهم والاستنتاج والاستنباط والقياس على النظائر، ولا ينهض على الحفظ عن ظهر قلب، فيغدو الطالب أشبه بآلة صماء، فهذا المقرر هو من المقررات الأساسية في قسم اللغة العربيّة، وأي خلل في تدريسه سيكون له أثر سلبي في سير العملية التدريسية والتربوية في القسم، وهذا ما كان فعلاً، فقد انعكس تدريس طلبة الدراسات العليا في الدورات الخاصة في المعاهد الخاصة سلباً على نسبة النجاح في المقرر؛ ذلك أن تلك المعاهد تغرر بالطلاب بطرقها وأساليبها الدعائية الكاذبة التي تخدعهم ، فيلجأ كثير منهم –وأغلبهم لا يداوم– إلى تلك المعاهد؛ ظناً منهم أن تجاوز مقرر النّحو لا يكون إلاّ عبر الدورات الخاصة، أو الدروس الخصوصية التي يقوم بها أيضاً بعض طلاب الدراسات العليا، علماً أنّ أساتذة المقرر يحذّرون من يداوم من الطلبة من الأثر السلبي لتلك الدورات.

ويزيد في تعقيد المشكلة أيضاً ما يدوّنه أولئك على مواقع التواصل الاجتماعي، وما يضعونه من دعايات لكتب وأمليات ألّفت من قبلهم تغني دراستها في رأيهم عن دراسة المقرر من الكتاب الجامعي الذي وضعه أستاذ جليل من أساتذة العربيّة، وهو الأستاذ عاصم بيطار رحمه الله، حيث إن هذا الكتاب غدا مرجعاً لطلبة أقسام اللغة العربيّة في الجامعات السوريّة، لما امتلكه مؤلفه من خبرة كبيرة في تدريس النحو، أفرغها في هذا الكتاب.

٣–العناية بالموروث اللغوي للناشئة:

« وبذور الأمل هذه إنما هي الناشئة، الناشئة المتميّزة خاصة، فما من ثروة تعدل تلك الثروة، فهي أهم من النفط والحديد وغيرهما؛ فما فائدة الثروة إن كانت تبدد يميناً وشمالاً، على ما نحو ما نرى، على حين أن دولة مثل اليابان تتضاءل فيها الثروات جداً، فلا نفط ولا غاز ولا معادن.. لا شيء من ذلك كلّه؛ ولكن الثروة الحقيقية والكبرى التي أعادت بناء اليابان بعد خروجه مهزوماً مدمّراً من الحرب العالمية الثانية، وقد ألقيت على أراضيه القنبلة النووية هي سواعد أبنائه، فبات اليوم

في مصافّ الدول الكبرى؛ وعلّة ذلك عنايته بالناشئة العناية القويمة، فما بالنا نحن العرب نهمل هذه الثروة الكبرى ونبددها في بلاد الهجرة؟ إذ ترى كثيراً من شبابنا يتسكّع على الموائد، ويقتات من الفتات في هاتيك البلاد، ومن لمسوا منه موهبة أو ذكاء وضعوه على أكفّ الراحة؛ ليفيدوا منه في بلادهم.

ولهذا علينا أن نُولي هذه الثروة من الناشئة المتميّزين كلّ رعاية واهتمام؛ كي يكون لهم الشأن الكبير في بناء هويتنا وشخصيتنا وأمتنا، وهذا البناء إن لم يرافقه بناء اللغة الصحيحة السليمة على نحو ما سلف فإنه لن يكون تام الأركان.

ومن هنا فإني أدعو إلى بناء اللغة البناء القويم والمحكم عند هذه الفئة المتميّزة، وفي رأيي أن السبيل القويم لذلك هو الإفادة من هذا الموروث اللغوي والأدبي والنقدي والفكري الذي بُني لبنة لبنة على مدى ثلاثة عشر قرناً أو يزيد، فكان صرحاً شامخاً قويّاً، يجب أن نفزع إلى ما يناسب حياتنا منه، أجل: أقول: إلى ما يناسب حياتنا ويواكبها، وعليه فإن أوّل خطوة يجب أن تكون هي أن ينظر الغُير من أهل العلم في هذا الموروث وأن ينصّوا على المصادر التي يمكن أن تفيد في بناء اللغة عند الناشئة المتميّزين؛ إذ تحدّد بدقة، فيُنصّ على المصادر في النحو والتصريف واللغة والبلاغة والأدب والشعر وشروح المجموعات الأدبية إلى غير ذلك مما يمكن أن يبني اللغة عندهم.

وبعد هذا الاصطفاء تُوضع الخطط العلمية المدروسة في كيفية الإفادة من هذه المظانّ، ولعلّ أظهرها طرائق تدريس مصادر التراث، وفي هذا المجال لا يجب أن يُترك الحبل على الغارب، فكلٌّ يُدرّس حسب رؤيته، بل لا بد من تدريب المعلمين المتميّزين على طرائق تدريس مصادر التراث للنشء المتميّز، ولكن قبل هذا على هذه الفئة من المعلمين أن تكون على علم ودراية بما في كتب التراث؛ لأن معلمّا يُدرّب على طريقة إعطاء معلومة لا يعرفها لا يمكن له أن يتواصل مع النشء التواصل السليم السديد.

ولعلّ أهم شيء في هذا المجال هو توظيف المعلومات التراثية في الحياة الفكرية والأخلاقية للناشئة؛ لأن هذا التوظيف له جانب اجتماعي وتربوي يتصل ببناء الخلق القويم الكريم للأجيال، وله جانب لغوي أيضاً؛ إذ إن توظيف المعلومة في

حياة الناشئة تجعلها أرسخ في مخزونهم اللغوي والفكري، ورحم الله أساتذتنا الذين درّسونا في المرحلتين الابتدائية والإعدادية لأنهم كانوا يحرصون على هذين الجانبين أشد الحرص؛ فكم من خلق كريم ترسّخ في الأذهان، وكم من عبرة وعظة اكتُسبت من قصة أو قصيدة أو مقالة...؛ وهو مما جعل جلّ الناشئة في هاتيك الحقبة يحفظون تلك القصة أو القصيدة أو المقالة فبقيت في أعماق الموروث اللغوي الذي كان خير معين في استعمال اللغة على نحو سليم في الأعمّ الأغلب.

إنّ كلمات العلامة محمود شاكر مثلاً في الرافعي لا تبرح الخيال والقلب، وإنّ صدقها وبيان العربيّة الساحر في ثناياها ليكشف عن أي موروث لغوي نهل منه أبو فهر رحمه الله، قال:

« رحمةُ الله عليكَ! رحمةُ الله عليكَ!

رحمة الله لقلبٍ حزينٍ، وكبدٍ مَصدُوعة!

لم أَفْقِدكَ أيها الحبيبُ ولكنِّي فقَدْتُ قَلْبي.

كنتَ لي أملًا أستمسِكُ به كلما تَقَطَّعَتْ آمالي في الحياة.

كنتَ راحةَ قلبِي كلما اضطربَ القلبُ في العناء.

كنتَ اليَنْبُوعَ الرَّويَّ كلما ظَمِئَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى.

كنت فجرًا يتبلَّج نورُهُ في قَلْبي وتتنفس نسماته، فوَجدتُ قلبي. . . .

إذ وجدتُ عَلاقتي بكَ.

لم أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي»[٣].

إنّ التأمّل في أي تركيب من تراكيب العلامة محمود شاكر ليكشف عن ذلك الموروث العميق الذي استقر في قلبه قبل لبّه، فعبّر التعبير العذب الصادق، ولست هنا في موضع تحليل هذه التراكيب الساحرة التي تأخذ بمجامع المرء، فتلقي في النفس بهجة تجعل المرء يحلّق في آفاق هذه اللغة الساحرة؛ على الرغم من وحشة المناسبة، ومرارة الفقد، وإنّ مقارنة جلّ ما نراه اليوم من طرائق التعبير عند مستعملي هذه اللغة في مجالات الأدب والفكر والإعلام وسوى ذلك؛ بهذا الأسلوب البهيج في التعبير ليكشف أنّه ما كان لأبي فهر أن يصوغ هذا البيان الأخّاذ لولا عمق موروث

---

[٣] –انظر:جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر ص٥.

لغوي وأدبي حصّله من معاشرة كتب الأدب واللغة والفكر، فنعِمَ بصحبتها، وغاص في عمق ثناياها؛ ليستخرج من كنوزها ودررها لوحات رحبة من تعابير أنيقة ندية رخية؛ كأنها الماء العذب الزلال»[٤].

٤-قلّة عدد الطلاب الذين يواظبون على الدوام:

ولعلّ قائلاً يقول: هذا يتناقض مع ما سقته قبل قليل، فقبل حين كنت تشتكي حشداً في حضور الطلاب، وكيف تقول الآن: قلّة المواظبة على الدوام هي من أسباب تدني نسب النجاح في مقرر النحو والصرّف.

أقول: إنّ هذا الحشد الذي يواظب على الدوام هو أقل من عدد ثلث الطلاب المسجلين في السنة الأولى، فالطلاب الذين يوظبون على الدوام لا يتجاوز عددهم (٥٠٠ طالب)، والطلاب الذين سجّلوا في السنة الأولى هم أكثر من (٣٠٠٠ طالب)، وهؤلاء يبدو عددهم قليلاً إن قيس بعدد من يتقدّم إلى الامتحان، وهذا يعني أن أكثر من ٨٠% منهم لا يأتون إلى الجامعة إلاّ وقت الامتحان، والمقرر يحتاج إلى دوام؛ لأن مقرر النحو يقوم على التحليل والاستنتاج والقياس -كما سلف-، وهي أمور لا يمكن تحصيلها إلاّ بالدوام، وهذا كلّه يزيد في انخفاض نسبة النجاح، فأكثر من ٨٠% من الطلاب يدخلون في نسبة النجاح، وهم لا يعرفون أيّ شيء عن طبيعة هذا المقرر، ولذا ستكون نسبة الرسوب فيهم كبيرة جداً، وأمّا لو حسبت النسبة على أساس الطلاب الذين يوظبون على الدوام فإنها ولا ريب ستكون أكثر من (٥٠%)، وهذه النسبة غير الحقيقية يكون لها وقع نفسي غير صحيح في نفوس الطلبة، فالطالب الذي يسأل عن نسبة النجاح في هذا المقرر سيصدم بالنسبة المنخفضة التي لا تتجاوز في كثير من الأحيان ١٥%، وسيقول بينه وبين نفسه: لن أكون من الناجحين في مقرر هذه نسبته، وهذا ما يؤدي إلى حاجز نفسي بينه وبين المقرر، فهو نتيجة هذه النسبة المنخفضة يكون قد أخذ قراره في الصدّ عن دراسة هذا المقرر.

٥-تعويل الطلاب على المحاضرات الجاهزة:

---

[٤] -انظر: الموروث اللغوي وأثره في بناء اللغة٤٦-٥٠.

ومنها أيضاً أنّ الطلبة يعوّلون على المحاضرات التي تباع في المكتبات، وهي مفعمة بالأخطاء العلمية واللغوية، وقد تمّ التنبيه على عدم صلاحيتها للدراسة، وأن الدراسة من الكتاب الجامعي حصّراً ، ومع ذلك يصرّ الطلبـة–وجلهّم ممن لا يحضر أصلاً– على الدراسة من تلك المحاضرات والملخّصات التي لا تغني عن الكتاب الجامعي.

٦–طريقة قبول الطلاب في أقسام اللغة العربيّة:

وهي طريقة تعتمد التسجيل المباشر في الفرع الأدبي، والعلامة المطلوبة للتسجيل هي علامة يطيق تحصيلها جلّ الطلاب في المرحلة الثانوية بكل يسر في مادة اللغة العربيّة في الشهادة الثانوية؛ لأنّ امتحان اللغة العربيّة فيها يقوم أصلا على الحفظ، فالنصّ الأدبي يحفظه الطالب، ويحفظ شرحه، وما أقيم عليه من أسئلة، وموضوع التعبير يمليه المعلّم على طلابه، فيحفظه عن ظهر قلب، وهو لا يطيق في الواقع إقامة تركيب عربي صحيح.

ولا أبالغ إن قلت: إنّ المدرّس في المرحلة الثانوية يصنع الطالب صناعة؛ فإن أطاق الطالب ضوابط هذه الصناعة حصّل عليا الدرجات.

وطالب هذه حالته وقد بني على ضوابط مصنوعة موضوعة كي يتجاوز الامتحان لن تكون بضاعته التي في جعبته تتناسب وأقسام اللغة العربيّة، ومقرر النحو والصرف خاصة؛ ونادراً ما ترى طالباً قد ولج قسم اللغة العربيّة لأنّ هذا القسم وافق هواه وأمنيته، ولذا تجد جلّ الطلاب قد أكرهوا على دخول هذا القسم إكراهاً، وطالب مكره على الدراسة في قسم لا يطيقه ستكون حالته فيه حالة لا تسر الخاطر.

ولذا يجب أن يبحث عن آلية أخرى لقبول الطلاب في هذا القسم؛ ولكنه وقبل هذا علينا أن ننظر في طريقة بناء الطالب في المراحل السابقة للجامعة وفق ما سلف قبلُ في هذا البحث، فإن روعي هذا الجانب في تلك المرحلة فإننا سنكون أمام طلاب مختلفين جداً عن حال الطلبة في أقسام اللغة العربيّة اليوم.

وثمّة أسباب أخرى لتدني التعليم الجامعي في أقسام اللغة العربيّة لا يتسّع الموضع لها، وهي في مجموعها تضعنا أمام سؤال عريض: وهو لمَ هذا التدني والانحدار في مستوى تعليم اللغة العربيّة عموماً، والنحو خصوصاً؟

وهو سؤال يجعلنا في كثير من الأحيان نهرب منه، ولا نواجهه بصدق، ذلك أنّ «المعضلة الكبرى التي تحدّ من تجاوز هذا الضعف في رأيي أن كل جهة تلقي بالمسؤولية على الأخرى، فالأسرة تردّ الضعف إلى المعلم والمدرسة والمناهج، والمدرسة تردّ الضعف إلى الجامعات التي تخرج الطلاب الضعاف، وهكذا ترى كلّ جهة تلقي باللوم على الأخرى مبرّئة نفسها من المسؤولية، وهكذا نبقى ندور في دائرة لا يعرف أوّلها من آخرها.

وأمام هذا أرى أن هذه المعضلة لا يمكن أن تعالج في إطار العمل الفردي، فلا بدّ من تضافر الجهود إذن، فمهما بذلت المدرسة ومن وراءها من مؤسسات تربوية وتعليمية من جهود لرفع مستوى العربيّة فإنها لن تفلح في اجتثاث هذا الداء الخطير من أصله، وقل الشيء نفسه في الجهد الذي تبذله الجامعات، أو الذي تبذله الأسرة أو سوى ذلك ممن تقع عليهم مسؤولية هذا الضعف الشديد في قواعد العربيّة واستعمالها.

إذن أمام هذا يجب أن تتضافر الجهود جميعاً عبر عمل جماعي مخطط له، ومدروس دراسة صحيحة، إذ يجب على المؤسسات التربوية والبحثية تتبّع أسباب هذا الضعف الشديد على نحو علمي موضوعي دقيق، لتضع النتائج بين أولي العزم من رجال الفكر والعلم واللغة والأدب والإعلام والسياسة والاقتصاد والتربيّة وعلم الاجتماع.. فينظرون في تلك النتائج مجتمعين متعاونين على غاية واحدة وهدف واحد وهو استدراك هذا الانحدار في العربيّة لدى أبنائها، فيقترحون الحلول التي تنسجم والواقع العملي ، وتراعي الظروف الحالية التي نمرّ بها.

وهذه المقترحات يجب أن تؤخذ على محمل الجدّ فتوضع الخطط العملية والعملية لتلافي هذا الضعف الشديد الذي يعاني منه أبناؤنا، مراعين استنهاض الهمم عندهم، وحثّهم على العمل الدؤوب لتلافي هذا الضعف، وهذه الاقتراحات والحلول لا يمكن أن تعطي ثمرة دون أن يكون هناك استعداد من أبنائنا لقبولها، ولعلّ أكثر هذا الاستعداد يكون عبر بيان أثر اللغة في حياة أبنائنا، وبيان صلة اللغة بالفكر والثقافة، وبيان أن لكل أمّة حيّة شخصية وهوية، وأن أهمّ أركان الهوية والشخصية اللغة، ولا يمكن لأمة أن تنهض إن بقيت لغتها قابعة في زاوية باردة باهتة؛ لذا ترى

الأمم القويّة حريصة على إتقان أبنائها للغتها، فتراها تضع الخطط والدراسات والأبحاث التي تسعى إلى تطويرها، فتبذل الجهد والمال في سبيل ذلك.

على أنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لمَ لا تُرمى تلك الأمم بالتخلف لأنها تُعنى بلغتها، على حين أن من ينادي من أبناء أمّتنا بإتقان الجيل للغته يرمى بالتخلف، وبأنه يعيش في الماضي، ولا يريد أن يعيش في المستقبل؟.

ولعلّ بعضهم يفهم من هذا الكلام أنني أريد أن يبقى الجيل المعاصر أسير الماضي لا يبرحه، وعليه أن يعبر عن الفكر والعلم بلغة العصر الجاهلي، فيستعمل مصطلحاته ومفرداته وتراكيبه، وهذا كلّه لا يقوم؛ لأن هذا النداء يرمي إلى الإفادة من ضوابط العربيّة وظواهرها الأساسية دون أن نعيش في غابر الزمن؛ لأننا نريد من هذا الجيل أن يعبّر عن عصره هو، عبر تراكيب ومفردات وألفاظ تتناسب وعصرنا، وهو أمر لا يُعجز هذه اللغة؛ لأنها قادرة بالفعل على استيعاب العلوم والفكر والحضارة، وليس ثمّة من دليل أعلى من تدريس العربيّة الفصحى في الكليات كلّها سواء أكانت علمية أم أدبيّة في الجامعات السوريّة، ويكفي فخراً أن خريجي كليّات الطّب من الجامعات السورية تفوّقوا على أقرانهم من الجامعات العربيّة الأخرى لأنهم درسوا الطبّ بلغتهم الأمّ، وهذا الذي فعلته الجامعات السورية هو نفسه الذي تفعله الجامعات في ألمانيا وفرنسا وهولندا والنمسا وسواها؛ إذ تقوم بتدريس العلوم بلغتها الأم، فلمَاذا يبدو هذا أمراً طبيعيا جداً في تلك البلاد، فلا يُنبس ببنت شفة على ذلك؟ بل إن الأصوات لتعلو معجبة بحرص تلك البلاد على لغتها الأم؛ فإذا آل الأمر إلى جامعاتنا ونُودي بتدريس العلوم فيها باللغة العربيّة الفصحى ترى هذه الأصوات نفسها ترمي هذه الدعوة بالتخلف وبأن أصحابها يعيشون في الماضي، وهم يريدون من الأجيال المعاصرة أن تعيش في الماضي، علماً أن جلّ من رسّخوا هذا وأسسوا له كانوا من كبار الأطباء والمحامين والعلماء الأبيناء من رجالات الفكر والأدب والتربية والاقتصاد وعلم الاجتماع.. الذين كانوا يُنادون بنهضة الأمة وتقدّمها.

ومن كان لديه أدنى شكّ في هذا الكلام فلينظر فيما سطّره أولئك في آثارهم ومصنّفاتهم التي يمكن أن يعاودها المرء بيسر في زمن الشابكة، وليس أدلّ على هذا

أيضاً من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق التي لمّا تزل شاهدة على عقود كانت تعجّ بالثقافة والمعرفة والدعوة إلى النهضة ومواكبة الحضارة الإنسانيّة، عبر لغة قد بُثّت فيها النّداوة والطّلاوة، فكان لها ذلك الوقع الساحر الذي يأخذ باللبّ والرّوح، فيبسط ما تجعّد من الخاطر على ما عبّر به ابن جني في مصنّفه الخصائص»[٥].

والسؤال السابق قد يحثّ هذا المجمع الكريم على إقامة ندوة خاصة لمناقشة أسباب هذا التدني، يُدعى إليها رجالات اللغة والمربون والتربويون في المؤسسات والوزرات المعنيّة برفع مستوى تعليم العربيّة، وإنّ غض الطرف عن هذا الجانب وترك الحبل على الغارب قد يؤدي إلى كوارث حقيقية، يمكن أن تلحق بالأمة كلّها، ولذا ترى الأمم الحية تُعنى بتعليم لغتها ونشرها بين أبنائها الناطقين بها على نحو صحيح قويم، وهي تتجاوز هذا إلى نشرها على ذلك النحو البهي بين الناطقين بغيرها.

دمشق ٢٠١٩/١٠/١٠م

أ.د. محمّد عطا موعد

[٥] –انظر: مقالة: النداء الأخير، مجلة التراث العربي، العدد ١٤٤–١٤٥/شتاء –ربيع ١٩٣٨هـ/٢٠١٧م ص١٢–١٤.

مصادر البحث:

١-جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

٢-سحرُ اللغة والبيان: أمثلة من نديّ النصوص، د. محمّد عطا موعد، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السوريّة للكتاب، سلسلة قضايا لغوية (٢٧)، دمشق ٢٠١٩م.

٣-مجلة التراث العربي(مقالة: النداء الأخير) العدد ١٤٤-١٤٥/شتاء -ربيع ١٩٣٨هـ/٢٠١٧م

٤-الموروث اللغوي وأثره في بناء اللغة، د. محمّد عطا موعد، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السوريّة للكتاب، سلسلة قضايا لغوية (٥)، دمشق ٢٠١٧م.